المحاضرة الأولى: مدخل مفاهيمي حول مناهج البحث العلمي

يتميز البحث العلمي عن أنماط الكتابات الأخرى كالمقالات الصحفية والأعمال الأدبية في انه يتبع الطريقة العلمية أو المنهج العلمي بغرض تحقيق أهداف العلم. فالبحث العلمي محاولة لاكتشاف المعرفة والتنقيب عنها والعمل على فحصها وتطوريها وتدقيقها بتقص دقيق ونقد عميق، من اجل تقديمها بشكل ممنهج.

سنتعرض في هذه المحاضرة إلى تعريف البحث العلمي، ومفهوم المنهج، وعلاقته بالمنهجية، كما سندرس المنهج التاريخي والوصفي وأخيرا المنهج المقارن.

2-1- تعريف البحث العلمي

إن البحث العلمي هو السمة المميزة للدراسات الجامعية، حيث يوظف الباحث حصوله على المعرفة لمساعدة مجتمعه على حل مشاكله والإجابة عن تساؤلاته والعمل على زيادة قدرته على فهم تغير الأشياء والظواهر والأحداث.

وقد تعددت تعريفات البحث العلمي، وليس هناك من تعريف محدد قد اتفق عليه الباحثون ولعل ذلك راجع إلى تعدد أساليب البحث وعدم التحديد في مفهوم العلم وفيما يلي عرض بعض هذه التعريفات:

- " تعريف فان دالين: انه المحاولة الدقيقة الناقدة للتوصل إلى حلول المشكلات التي تؤرق البشرية وتحيرها، ويولد البحث العلمي نتيجة حب الاستطلاع والشوق العميق لمعرفة الحقيقة، وتحسين الوسائل التي تعالج بها كل الأشياء.

- تعريف ويتني(Whitney) (: انه استقصاء دقيق يهدف إلى اكتشاف حقائق وقواعد عامة يمكن التحقق منها مستقبلا .

- تعريف هلوي(Hillway) : انه وسيلة للدراسة يمكن بواسطتها الوصول إلى حل مشكلة محددة : وذلك عن طريق التقصي الشامل والدقيق لجميع الشواهد و الأدلة التي يمكن التحقق منها، والمرتبطة بهذه المشكلة.

- تعريف بلونسكي (Polansky) : انه استقصاء منظم يهدف إلى اكتشاف معارف والتأكد من صحتها عن طريق الاختبار العلمي.

– تعريف توكمان: إنه محاولة منظمة للوصول إلى إجابات أو حلول للأسئلة أو المشكلات التي تواجه الأفراد أو الجماعات في مواقعهم ومناحي حياتهم.

– تعريف كيرلنجر: انه تقصي منظم، مضبوط تجريبي، وناقد للافتراضات حول طبيعة العلاقات بين المتغيرات في ظاهرة ما.

ويمكن تعريف البحث العلمي، بأنه مجموعة الجهود المنظمة التي يقوم بها الإنسان، مستخدما الأسلوب العلمي وقواعد الطريقة العلمية، في سعيه لزيادة سيطرته على بيئته، واكتشاف ظواهرها، وتحديد العلاقات بين هذه الظواهر .

كما يمكننا أن نستخلص نقاط مشتركة بين كل التعريفات السابقة في العناصر التالية:

– انه محاولة منظمة تتبع منهجا معينا، ولا تعتمد على الطرق غير العلمية.

– زيادة الحقائق والمعلومات التي يعرفها الإنسان، وتوسيع دائرة معارفه، والكشف عن الحقائق والمعلومات غير المستخدمة، ليكون أكثر قدرة على التكيف مع البيئة والسيطرة عليها.

– يختبر المعارف والعلاقات التي يتوصل إليها ولا يعلنها إلا بعد فحصها والتأكد منها بالتجربة.

– يشمل جميع ميادين الحياة وجميع مشكلاتها، ويستخدم في جميع المجالات على حد سواء.

2-2- المنـــــــهج:

المنهج مصدر بمعنى طريق، وهي مشتقة من الفعل نهج وانهج بمعنى وضح ونهجا واضحا بينا، والنهج الطريق المستقيم الواضح. ونهجت الطريق سلكته، الذي لا يتيه سالكه بل يصل إلى غاية مباشرة بلا التواء ولا تعرج .

وفي القران الكريم ورد لفظ المنهج في سورة المائدة:" لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" وهو الطريق الواضح .

يستعمل في كل شيء كان بينا واضحا وطريق ناهجة أي واضحة وقد ورد في الأثر " لم يمت رسول الله (ص) حتى تركككم على طريق ناهجة أي واضحة وبينة. وقد وضح الأمر وانهج إذا وَضُح .

والمنهج هو" مجموعة الطرق والأساليب والقواعد التي يعتمدها الباحث من اجل الكشف عن الحقائق الخاصة بكل علم" . وهو "الطريقة التي يتوصل بها الإنسان بكيفية علمية منطقية متسعة مع الواقع إلى إدراك

حقيقة من الحقائق التي كان يجهلها وهو السبيل إلى اكتساب المعرفة اليقينية" . وهو الأسلوب المتبع والطريق الذي يسمح بالوصول إلى معرفة الحقائق التاريخية واكتشافها.

وكلمة منهج باللغة الفرنسية Methode ومثائلها في اللغات الأوروبية مستمدة من الكلمة اليونانية Methodos وأصلها odes والتي تعني الطريق أو النهج المؤدي إلى الهدف المنشود ولم يتحدد المعنى الاصطلاحي للكلمة إلا في أواخر القرن 17م إذ أصبح يدل على الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بالاعتماد على مجموعة من القواعد .

وإذا كان المنهج هو التنظيم الصحيح لمجموعة من الأفكار بغرض الكشف عن حقيقة أو البرهنة عليها والتي تظهر أساسا في كيفية معالجة الموضوع، فهو جزء من المنهجية التي هي اشمل منه، والتي عرفها الأستاذ العسكري على أنها: " العلم الذي يجب أن يبين كيف يقوم الباحث ببحثه، أو هي الطريقة التي يجب أن يسلكها الباحث منذ عزمه على البحث وتحديد موضوعه، وحتى الانتهاء منه، أو هي مجموعة الإرشادات والوسائل والتقنيات التي تساعده في بحثه" .

واليوم نجد أن العلماء والباحثين حددوا لنا قواعد وأصول والقوانين التي تخضع لها طريقة إعداد البحوث، حيث يتنوع بين التاريخي والوصفي والمقارن....

2-3- أنواع المنـــــــاهج

سنتطرق في هذا الموضوع إلى بعض المناهج الأساسية المستخدمة بشكل كبير لدى الطلبة والباحثين في مجال العلوم التاريخية، وهي على التوالي: المنهج التاريخي و المنهج الوصفي والمنهج المقارن.

2-3-1- المنهج التاريخي

يفحص التاريخ بالمنهج، ويدرس بهدف تحقيق وتوثيق المعلومات بظاهرة أو بموضوع معين كمحاولة لتفسير أو تأويل تلك الظاهرة ، ويُعرّف المنهج التاريخي بأنه "الأبحاث التي تقوم بدراسة الظواهر والأحداث، والمواقف الّتي انتهت منذ زمن بعيد، أي أنها تختص بدراسة الماضي والأحداث التي حدثت فيه.

والمنهج التاريخي هو أيضا " القواعد والطرق التي اصطلح على وضعها العلماء بغرض الإعانة على الوصول إلى صحة المعلومات والتأكد من صوابها" ، كما يعرف المنهج التاريخي بأنه الطريق المؤدية إلى كشف الحقيقة التاريخية، وذلك اعتمادا على الفحص والتحليل لما خلفه الإنسان وإزالة الغبار عنه، وذلك بقصد

إعادة البناء التصوري للواقعة التاريخية وما يحيط بها ودراستها لاستخلاص الحقيقة منها، وتوظيفها لكتابة التاريخ .

كما يعرف الدكتور سعيد إسماعيل صيني المنهج التاريخي بأنه" المنهج الخاص لما ينسب للبشر من اجتهادات وأقوال وأفعال وتقريرات بشرية عادية، ليست معصومة من الخطأ" أما الشيباني فيعرّفه بأنه" الطريق الذي يسلكه الباحث في جمع المعلومات عن الأحداث والحقائق الماضية وفحصها ونقدها وتحليلها والتأكد من صحتها ثم عرضها وترتيبها وتنظيمها وتفسيرها واستخلاص التعميمات والنتائج العامة منها" .

وفي الحقيقة هذا التعريف الأخير ماهو إلا خلاصة لمراحل المنهج التاريخي والتي يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أ- تحديد المشكلة

ب- جمع المادة التاريخية

ج- نقد المصادر التاريخية

هـــ- تفسير النتائج وكتابة تقرير البحث

2-3-2- المنهج الوصفي:

يعتبر المنهج الوصفي الأكثر استخداما في الدراسات الإنسانية ولقد نشأ هذا المنهج في القرن 18 عشر وازدهر وتطور في القرن 19 م ويهتم بالوصف الدقيق والتفصيلي لظاهرة أو موضوع معين من خلال البيانات .

ويقوم المنهج الوصفي في الأساس على جمع المعلومات و الحقائق ومقارنتها وتحليلها وتفسيرها وذلك بعد تحديد خصائصها وأبعادها وتحديد العلاقة بينها، وذلك بغية الوصول إلى وصف علمي متكامل لها .

و يعتمد المنهج الوصفي على مجموعة من الخطوات في البحث يمكن تحديدها فيمايلي:

1- تحديد المشكلة وصياغتها؛

2- وضع الفروض وتوضيح الأسس التي بنيت عليها؛

3- تحديد المعلومات والبيانات وتحديد أساليب جمعها؛

4- جمع المعلومات من المصادر المختلفة؛

5- صياغة النتائج والاستنتاجات؛

7- وضع التوصيات المناسبة .

وتتخذ الدراسات الوصفية أشكالا مختلفة، أهمها المسح و يعتبر من أهم طرق البحث المعتمد عليها في معظم العلوم الإنسانية .

2-3-3- أنواع المنهج الوصفي :

تتقسم المناهج الوصفية إلى أنواع هي :

- منهج الدراسات المسحية

- منهج دراسة الحالة

- منهج دراسات النمو والتطور

أ- منهج الدراسة المسحية :

تعتبر طريقة المسح من أكثر الطرق استخداما في البحث الوصفي، وعلى أساس هذا المنهج يجري الباحث دراسة شاملة لموضوع دراسته، وجمع البيانات والمعلومات المتعلقة به.

من خلال ذلك يمكن القول أن المنهج المسحي يهدف إلى:

- وصف الظاهرة المدروسة وتشخيصها وتحليلها وجمع بيانات حولها وتقرير حالتها كما هي في الوقت الراهن، وفي هذا المجال فإن الدراسة المسحية تتعلق بالوقت الذي يجرى فيه البحث ولا تتعلق بالظاهرة ولا بمستقبلها.

- يقوم الباحث بتقديم المعايير المحددة التي يجب أن تكون الظاهرة وفقها.

- يقوم الباحث من خلال دراسة الواقع بإسقاط ما هو موجود فعلا في المجتمع مع ما ينبغي أن يكون عليه الحال وفق معايير محددة، و في هذا الإطار فإنه يقوم بمقارنة بين الواقع وبين المعايير المحددة.

- يقوم الباحث بتقديم اقتراحات وأساليب من أجل الوصول إلى ما ينبغي أن تكون عليه الظاهرة استنادا إلى المعايير المحددة.

- يصل الباحث في الأخير إلى استخلاص النتائج التي يمكن تطبيقها على مجتمع الدراسة كله .

إن الدراسات المسحية تعتمد كثيرا على أدوات البحث العلمي التي لا يمكنها أن تغفل ذلك، بل أن هذه الأدوات هي محور هذه الدراسة ومثال ذلك المقابلات التي يجريها الباحث مع العينة التي يختارها من مجتمع الدراسات و كذلك قيامه بعملية الاستبيان...الخ.

والحقيقة أن للدراسات المسحية أنواع كثيرة منها: المسح المدرسي – الدراسة المسحية للرأي العام – المسح الاجتماعي .

ب- المسح المدرسي:

ويتعلق هذا المسح بدراسة قطاع مهنة التعليم، حيث يقوم الباحث بتسليط الضوء على العملية التربوية ومدى فعاليتها. ومثال ذلك أن يقوم الباحث بدراسة مسحية للهيئة القائمة بالتدريس (المدرسون) و ذلك من خلال مجموعة من العناصر يمكن أن تتمثل في نسبة المدرسين إلى التلاميذ في المدرسة، الصفات الشخصية التي ينبغي أن تتوافر في المدرس وعلاقتها بفاعلية التدريس، الحجم الساعي لساعات التدريس، مستوى أجور المدرسين، أعمار المدرسين وعلاقتها بفاعلية التدريس...الخ

ج- مسح الرأي العام:

يعتبر هذا النوع من الدراسة أحد أنواع الدراسات المسحية، وهي تتعلق بالرأي العام، و الرأي العام هو مجموع القناعات والقيم والآراء والأحكام السائدة في مجتمع محدد، والتي تكتسب بصفة الاستقرار، والتي قد تختلف في وضوحها ودلالتها، ولكنها تكون صادرة عن اتفاق متبادل بين غالبيتهم، رغم اختلافهم في مدى إدراكهم لمفهومها، ومبلغ تحقيقها لنفعهم العام، ومصلحتهم المشتركة.

من خلال ذلك فإن الرأي العام هو اتجاه جماعي يعبر عن رأي الغالبية العظمى بين أفراد مجتمع معين في أمر يخصه في وقت محدد .

د- المسح الاجتماعي:

وهو نوع من الدراسات المسحية، يرتكز على الدراسة العلمية لظروف المجتمع وحاجاته بقصد الحصول على بيانات ومعلومات تتعلق بالظاهرة المدروسة، والقيام بتحليلها وتفسيرها للوصول إلى تعميمات بشأنها.

من خلال ذلك نلاحظ أن الدراسة المسحية الاجتماعية تستهدف دراسة ظاهرة أو مشكلة اجتماعية معينة في منطقة معينة من أجل الوصول إلى حلول بشأن الظاهرة المدروسة. ومثال ذلك دراسة ظاهرة العنف في مجتمع معين، أو ظاهرة استهلاك المخدرات وترويجها...الخ.

هـــ- منهج دراسة الحالة :

يعتبر منهج دراسة الحالة أحد المناهج الوصفية التي تعنى بدراسة وحدة من وحدات المجتمع دراسة تفصيلية من مختلف جوانبها، وذلك من أجل الوصول إلى تعميمات تنطبق على غيرها من الوحدات و من خلال ذلك فإن هذا المنهج يتميز بالتعمق في دراسة وحدة معينة سواء كانت هذه الوحدة فردا أو قبيلة أو قرية أو مؤسسة اجتماعية أو مجتمعا محليا أو مجتمعا عاما، يهدف إلى جمع البيانات و المعطيات والمعلومات المفصلة عن الوضع القائم المتعلق بالوحدة المدروسة وتاريخها وعلاقاتها بالبيئة وتحليل نتائجها بهدف الوصول إلى تعميمات يمكن تطبيقها على غيرها من الوحدات المتشابهة في المجتمع الذي تنتمي إليه هذه الوحدة أو الحالة، غير أنه يشترط أن تكون الحالة ممثلة للمجتمع الذي يراد الحكم عليه .

من خلال التعريف الذي تطرقنا له يمكن أن نستنتج:

مميزات منهج دراسة الحالة:

- يهدف هذا المنهج إلى الحصول على معلومات شاملة و مفصلة عن الحالة المدروسة.

- القيام بدراسة معمقة للحالة المدروسة.

- القيام بدراسة الحالة المدروسة من حيث متابعة تطورها تاريخيا وحاليا، وهذا ما يميز منهج دراسة الحالة عن منهج الدراسات المسحية .

2-3-4- المنهج المقارن:

يعرف المنهج المقارن بأنه مجموع الخطوات التي يتبعها الباحث في مقارنته للظواهر محل البحث والدراسة بتوضيح مستمر لأوجه الشبه والاختلاف فيه، ومن ثم استنتاج العلاقات بين مختلف المتغيرات بغية تفسيرها.

وعرف معجم المصطلحات الاجتماعية المنهج المقارن بأنه " تلك الطريقة للمقارنة بين مجتمعات مختلفة، أو جماعات داخل المجتمع الواحد، أو نظم اجتماعية للكشف عن أوجه الشبه والاختلاف بين

الظواهر الاجتماعية وإبراز أسبابها، وفقا لبعض المحكات التي تجعل هذه الظواهر قابلة للمقارنة كالنواحي التاريخية، والإحصائية، ويمكن عن طريق هذه الدراسة المقارنة صياغة النظريات الاجتماعية" .

ويسعى المنهج المقارن إلى إيجاد سمات مشتركة بين الظواهر محل الدراسة، وعرف استخدام المقارنة منذ القديم؛ فقد استخدم هذا المنهج كل من أرسطو، وأكد عليه ابن خلدون، كما اعتمد عليه اوغست كونت في المقارنة بين الصفات البشرية وغير البشرية في استخدام المزايا الجوهرية لمجتمعه .

ويشمل استخدام المنهج المقارن كافة العلوم تقريبا وهذا ما أكدته مادلين غرافيتز Madeline Gravitz قائلة:" المنهج المقارن هو ذلك المنهج المستخدم في جميع العلوم الاجتماعية كبديل للتجريب، ما يجعل من الممكن تحليل البيانات الملموسة عن طريق الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف والعناصر الثابتة والأنواع، وتتوقف صلاحية هذا المنهج على الصرامة التي يطبق بها" .

ويستخدم المنهج المقارن في التاريخ بمقارنة الظواهر الاجتماعية في عدة مراحل زمنية متعاقبة اعتمادا على المكان والزمان الذي حدثت فيه تلك الظواهر، ولكي تكون المقارنة سليمة، لابد من توفر مجموعة من الشروط لعل أهمها:

- لابد من وجود واقعتين أو أكثر لتقع المقارنة لإبراز أوجه التشابه والاختلاف.

- يجب أن يجمع الباحث معلومات كافية حول الظواهر المراد مقارنتها.

- من المفترض وجود أوجه تشابه وأوجه اختلاف لحدوث المقارنة، فلا يجوز مقارنة ما لا يقارن، مع مراعاة التعرض إلى الجوانب العميقة في الظاهرة، والابتعاد عن السطحية مع التقيد بزمان ومكان حدوثها .

عموما تعد الطرق المنهجية على اختلافها وتعددها وسيلة تساعد الباحث والمؤرخ على تجميع الروايات التاريخية حول موضوع معين وذلك بغرض الوصول إلى الحقيقة التاريخية حسب وجهة نظره. ووجود منهج محدد يتبع كأساس للتوثيق ضرورة علمية لجميع العلوم والدراسات.

وفي الأخير، يمكن القول أن البحث هو تنقيب مستمر عن المعرفة بطريقة علمية أي وفق منهاج أو مناهج متعددة، ولكل بحث الطرق الفنية الخاصة به، التي يستخدمها الباحث للوصول إلى نتائج، وعلى الباحث أن يعرفها جيدا. وتعد القدرة على كتابة البحوث والدراسات وإعدادها بأسلوب علمي من المهارات الأساسية اللازمة لكل الباحثين والطلبة في الدراسات العليا وغيرهم.